

قراءة في كتاب "هذه الجزائر" للمناضل الجزائريّ والمؤرخ النّائر أحمد توفيق المدنيّ.

د. صالح علواني

جامعة سوسة - تونس

نعم لا يختلف اثنان في كون تاريخ الجزائر حافل بالبطولات والأمجاد وآخرها وأهمها على الإطلاق الثورة الكبرى التي اندلعت بين نوفمبر 1954م وشهر جويلية 1962م والتي انتهت بدحر استعمار استيطاني من أشنع ما عرف التاريخ البشري المعاصر. فالمقاومة الجزائرية ألهمت العديد من الشعوب التواقة للتححر والانعتاق، الأمر الذي جعلها محط أنظار الجميع وجلب لها تعاطفا عالميا منقطع النظير. كل هذه العوامل مجتمعة أفرزت من بين ما أفرزته سيلا من الكتابات جاءت متنوعة في أغراضها وأصنافها بتنوّع الموقع وزاوايا النظر والرؤى: فكان النثر وكان الشعر، وكانت الرواية والقصة وكانت أصناف أخرى من الكتابات تُدرج عادة ضمن الدراسات العلمية الهادفة إلى الانتصار للثورة والثوار.

من هذا الصنف الأخير نذكر كتب التاريخ أو ما أريد لها أن تكون كذلك. هي كتب وقع تأليفها أثناء فترة الاستعمار، وأرادها مؤلفوها من الجزائريين الأحرار سلاحا في وجه منظومة القهر التي كانت مصممة على محو الشخصية الجزائرية عن طريق تحريف تاريخها. وقد جاءت كتابات بعض المثقفين الجزائريين ممن انتموا في أغلبهم إلى جمعية علماء المسلمين لتفند ما ذهب إليه غلاة الاستعمار من تشكيك في ماضي شعب الجزائر وانتمائه الحضاري قاصدين من ذلك سلبه كل مقومات الصمود والتصدي حتى يتحقّق هدف المستعمر المتمثل

في استسلام الشعب لما خطط له من أهداف. هذا الصنف من الكتابات لم يتوخ أسلوباً أدبياً بعينه بل اعتمد أصحابه السرد للواقع التاريخي كما أمكن لهم تصويره وتوثيقه محاولين في ذلك توخي موضوعية المؤرخ ودقة المعلومة التاريخية. إلا أن ما يهمننا في هذا البحث هو ما كتب عن الفترة الممتدة بين 1830م و1962م. وسوف لن نناقش مطولاً مدى التزام هؤلاء بمهنية المؤرخ ولكننا سنورد رؤية هذا الأنا لتاريخه ولثورته المجيدة، بعيداً عن التأثيرات الاستعمارية المشككة في هذا التاريخ وهذه الثورة. سنركز في هذا العرض على ما جاء بقلم أحد ممّن عرفوا بدفاعهم المستميت عن الجزائر وشعبها مستعملاً قلمه الذي لا يكل: المناضل والصحفي والمؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني. ونكون بذلك قد قدمنا رؤية من الداخل، من الأنا، لهذه الثورة ولهذا الشعب في نضاله ضدّ الاستعمار الغاشم ومقاومته التي لم تهدأ ضدّ الاحتلال.

1- الأنا والثورة:

أحمد توفيق المدني، الذي قال عنه الشيخ المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي (1908م-2010م) إنّ "له في كلّ مشروع إصلاحٍ أو سياسي أو أدبي في بلادنا رأي وتدبير أو عمل وتسيير"، جمع بين الصحافة والتأليف والنضال الميداني في صلب جمعية علماء المسلمين وفي جبهة التحرير فجاءت كتاباته خليطاً من كل هذه الأبعاد التي ميزت شخصية الرجل. لكنه حاول في كتابه هذا⁽¹⁾ أن يميز بين العمل الصحفي وكتابة التاريخ ووجهه لعدة أطراف: الطرف الداخلي وفيه استنهاض للهمم وشحن العزائم، والطرف الخارجي بشقيه العربي والعالمي للتعريف بتاريخ البلاد وتجذرها في محيطها القريب والبعيد.

أ- هل يمكن اعتبار المدني مؤرخاً؟

إذا انطلقنا من تعريف مارك بلوخ للمؤرخ والذي ذكر به جاك لوغوف عندما قدم لكتاب "دفاعاً عن التاريخ" والذي يقول فيه: "ينبغي لنا إذن لكي نكتب

التاريخ بصورة جيدة، ولكي نعلمه، ونجعله جذاباً ألا ننسى أنه إلى جانب "ضروراته الصارمة" فإن له "متعة الجمالية الخاصة..." كما أنه بجانب الدقة الضرورية المرتبطة بالتعمق والبحث عن الآليات التاريخية، هناك أيضاً "لذة إدراك أشياء متفردة."⁽²⁾ وهكذا ليس أمامنا إلا أن نصنف المدني ضمن فئة المؤرخين حتى باعتماد المقاييس الحديثة. فالنصيحة التي أبداها مارك بلوخ والتي تبدو إلى اليوم في مكانها الصحيح تقول: "فلنحذر أن ننزع عن العلم التاريخي جانبه الشعري."⁽³⁾ والتصور الحالي لمهنة المؤرخ - وإن كان المدني لا يدعي أنه مؤرخاً - هي مهنة تستند على ركيزتين رئيسيتين: أما الركيزة الأولى فتكمن في الرفض الدائم لدور "المدعي العام"⁽⁴⁾ ذلك الذي يصدر الأحكام، وتكمن الركيزة الثانية في الأهمية الكبيرة لما يمكن أن نسميه "الأخلاق المهنية". والثابت لدينا أن الجمع بين هاتين الركيزتين بارز بالقدر الكافي عند المدني في كتابه موضوع هذا البحث. فقد حاول المدني قدر استطاع أن يكون عمله بعيداً عن الذاتية، كما جاء نتيجة "رفض انغلاق المؤرخ على نفسه داخل برجه العاجي."⁽⁵⁾ فهو القائل: "ولولا الوقار العلمي الذي يجب أن يلزم هذا العرض حتى نهايته، ولولا تعهدي بأن يكون هذا الكتاب كتاباً تصويرياً تحقيقياً، لحالة الشعب الجزائري، والوطن الجزائري، دون أن أسير مع التأثير الشخصي، والانفعال النفسي، أو العاطفة، لكان هذا الكتاب مكتوباً بلغة أخرى، ولربما احترقت صفحاته بمداد هو السم الزعاف، وتحت أنفاس هي اللهب المتصاعدة"⁽⁶⁾، وهكذا جاء كتاب "هذه هي الجزائر" حاملاً لعدة أبعاد: بعد توثيقي وبعد بيداغوجي وبعد إعلامي ونضالي يقول فيه مؤلفه: "سأحاول - وسأوفق في محاولتي إن شاء الله - عرض أعمال الثورة في مختلف ميادين الثورة، منذ يومها الأول إلى هذه الساعة، موفى يوليو سنة 1956م."⁽⁷⁾، وإن اعتمدنا في هذه الدراسة على هذا الجزء الأخير من الكتاب فليس معناه أن المدني أهمل العمق التاريخي "لأمة" الجزائر منذ أقدم العصور حتى يبين

دجل المستعمر وحتى يستعيد الجزائري ثقته في نفسه وهو يخوض معركة التحرير.

ب- الغرض من وضع الكتاب:

أما الغرض من وضع الكتاب فواضح وجلي، فهو موجه إلى "العالم، والعالم العربي على الأخص، (الذي) لا يعرف عن هذا الشعب، كما يقول المدني، ولا عن بلاده الشيء الكثير. فالاستعمار الفرنسي قد أقام بين العالم وهذه القطعة الثمينة الطيبة من أرض العروبة والاسلام، جدارا حديديا، أرادته هو أبديا، وأرادته الله مؤقتا.⁽⁸⁾ فالمدني، يرجو أن يكون الكتاب وسيلة تزداد بها روابط الأخوة والتضامن والكفاح، بين العالم العربي الناهض، وبين شعب الجزائر المجاهد حتى نشترك معا في تفويض آخر معاقل الاستعمار، وإقامة جدران المستقبل العربي الباهر، على أسس الأخوة الصادقة، والتضامن الفعال، تحت راية الحرية وفي نعيم الاستقلال.⁽⁹⁾ كما جاء الكتاب لفضح النظرة المتعالية والمتطرفة والعنصرية لمن سماهم بأبناء العنصر اللاتيني هؤلاء الفرنسيين أو المتفرنسين⁽¹⁰⁾ الذين اعتبرهم سبب مصيبة القطر الجزائري، "وهم أصل الداء الذي عانت البلاد منه الأمرين... تجمع بين أفراد هذه الطائفة التي تدعى "فرنسية" رابطة مقدسة ذات شعار مربع: الاستبداد، الاستحواذ، والاحتقار والتنكيل.⁽¹¹⁾"

2- هل استسلمت الأمة الجزائرية لما أصابها؟

يرى المدني أن وقع احتلال الجزائر هو بمثابة نكبة عامة تقريبا. ولم يكن نكبة على شعب الجزائر وحده، بل نكبة على الشرق بأسره وعلى الحرية في أقدس معانيها وعلى القارتين الأفريقية والآسيوية على السواء. ذلك أن احتلال فرنسا للجزائر كان أول ثغرة فتحتها الاستعمار في بلاد العروبة بأقطار البحر المتوسط. ففرنسا اخذت تكيد لتونس إلى أن تمكنت من احتلالها عام 1881م، والاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانكلترا جعل الانكليز يستبدون بأمر مصر ويحتلونها عام 1882م، ثم

بدأت فرنسا تتوغل في صحراء إفريقيا محطمة الممالك الإسلامية المستقلة فيها وختمت هذه الهجمة الاستعمارية في المنطقة الإفريقية باحتلال قطري طرابلس وبرقة، ثم كان ضياع كامل القسم الأوروبي من السلطنة العثمانية في حرب البلقان، حتى انهيار الدولة نهائياً.

هل استسلمت الأمة الجزائرية لما أصابها ممن احترقوا "الاستبداد، الاستحواذ، الاحتقار، التنكيل؟"، وكيف تصدى الجزائري لهؤلاء؟ سؤال طرحه أحمد توفيق المدني وأجاب عنه بدقة اعتماداً على الإحصائيات والوثائق والأرقام. "كلّا" يقول المدني. لقد كان تاريخ الجزائر تاريخ بطولة "لم يشهد العالم -بحقّ- لها مثيلاً"⁽¹²⁾، إذ بدأت المقاومة منذ وطأت أرجل الفرنسيين أرض الجزائر في "جبال النمامشة، وأوراس"، مواطن الأبطال ومنبت الصناديد من أقدم العصور "وغيرها من الأماكن والجهات".⁽¹³⁾ ففي الشرق بدأت مقاومة رسمية حكومية قادها الحاج أحمد، باي قسنطينة (حتى سنة 1838م). وفي الناحيتين الوسطى والغربية، كانت مقاومة شعبية قادها الأمير عبد القادر وامتدت على مدى 17 عاماً (استسلام الأمير في 23 ديسمبر 1847م). وعن هذه المقاومة يقول المدني واصفاً إياها بالمعجزة: "حقاً والله إنها لمعجزة من معجزات التاريخ. ولقد قلت يوماً أثناء خطاب: إن كانت النبوءة بالمعجزات، فشعب الجزائر ولا شك نبيّ الأمم."⁽¹⁴⁾ ثم تواصلت المقاومة ولم تهدأ وأخذت أشكالاً عديدة كانتفاضة أهل واحة الزعاطشة سنة 1852م بقيادة الشهيد السيد أبو زيان. وفي نفس السنة انتفض أهل الاغواط، ثم كانت انتفاضة أولاد سيدي الشيخ التي امتدت ما بين 1864م-1869م، وبعدها انتفاضة الجرجرة بقيادة الباش آغا الحاج محمد المقراني سنة 1871م، وأسفرت عن مذابح وأعمال تشريد وتخريب وإعدامات بالجملة ونفي زعيم الثورة الذي خلف الشهيد المقراني وبعض من رفاقه وخمسائة من وجوه القوم وحكم عليهم بالأشغال الشاقة وأبعد جميعهم إلى كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي. كما تعددت

الانتفاضات بـجبال الأوراس المنيعـة وأهمها في تلك الفترة ثورة 1853م التي لم تهدأ إلى أن اندلعت الثورة الجزائرية الكبرى سنة 1954م والتي ستكنس الاستعمار نهائيا. غير أن المقاومة أخذت أشكالا أخرى وتوَعّت أساليبها فكانت سياسية وثقافية، وإن بدت محتشمة في بدايتها، إلى جانب المقاومة المسلحة. فتأسست الجرائد الناطقة باللغة العربية وتأسست الجمعيات وكذلك الأحزاب. وبدأت بـوادر التمرد الفكري مع الأمير خالد بن محي الدين بن الأمير عبد القادر بتأسيس جريدة "الإقدام" الناطقة بالعربية، ثم بدأت الجمعيات تتأسس مثل جمعية نجم شمال إفريقيا في باريس و"نادي الترقى" الذي ساهم في تأسيسه أحمد توفيق المدني بعاصمة الجزائر في سنة 1926م. ونادت جمعية نجم شمال إفريقيا، التي ضمت إلى جانب الجزائريين تونسيين ومراكشيين، بمبدأ التحرير التام. وبدأت هذه الدعوة في الانتشار بزعماء مصالي الحاج. وتأسس حزب الشعب بزعامته بعدما حل الاستعمار جمعية نجم شمال إفريقيا. و"كان هذا الحادث من أعظم حوادث التاريخ الجزائري الحديث، وطبع حزب الشعب بطابعه الاستقلالي الثوري كامل السياسة الجزائرية."⁽¹⁵⁾، وتواصلت أشكال الصراع بوتيرة متفاوتة إلى أن اندلعت الثورة الكبرى وعمت كامل أرجاء البلاد انطلاقا من الشرق إلى الغرب. وبخصوص منطقة وهران يقول لنا المدني: "لم تكن هذه المنطقة قد تحركت كثيرا أوائل عهد الثورة، فكانت تكتفي بمناوشات خفيفة ومعارك قليلة لا تتعدى النطاق المحلي إنما كانت تستعدّ أثناء ذلك. وكانت تحسم أمرها للقيام بالعمل الحاسم."⁽¹⁶⁾ وخلال سنة 1955م أخذت تقض مضاجع الفرنسيين، ثمّ التهمت الثورة فيها بصفة مدهشة خلال سنة 1956م، وانتشرت وانضمّ إليها الناس أفواجا. وقد نال المجاهدون في جميع المعارك التي خاضوها انتصارات كبيرة وغنموا من الفرنسيين غنائم عظيمة. ولا تزال هذه الواجهة ثابتة ثبات الأطوار في وجه القوة الفرنسية، بحيث

لا وجود لسلطة الاستعمار فيها إلا في بعض المدن والقرى الكبيرة، أما البادية وبقية القرى، والطرق، فهي تحت حكم أو تحت إشراف المجاهدين.⁽¹⁷⁾

2- كيف صورَ المدني الحالة النفسية للجزائريين وهم يخوضون "معركة الحرية الحاسمة"؟

بالإيمان والأمل قاد الجزائري مقاومته وهو ما سماها المدني بالمعجزة النفسية قائلاً: "لو أنّ مجموعة هذه المصائب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والدينية، كانت قد أصابت أمة أخرى من أمم العالم، لأحدثت فيها دون ريب ما يسمّى في علم الاجتماع بعقدة النقص، ولرمت بها بين أحضان اليأس والموت... فالجزائريّ فقد كل شيء إلا الأمل، وانتزع منه كل شيء، إلا الإيمان، وحطمت كل قواه، إلا قوّة النفس."⁽¹⁸⁾

في الحقيقة لم يدخر المدني جهداً في البحث عن أدق التوصيفات لنضال الجزائريين. فجاءت معبرة عن حجم التصميم والشجاعة وشدة البأس لدى "الأمة التي أدهشت العالم بجهادها، مسجلة أروع صفحات البطولة والمجد، والتاريخ سيروية قصّة نضال تحريريّ لا مثيل له في العالم" أو هكذا تتبأ المدني. ويكفي أن نشير هنا لما انتقاه المدني من عبارات الفخر والاعتزاز التي استمدّها من نضال شعبه الثائر: "أمة الجزائر أو قطر الجزائر: إسمان أصبحا ملء السمع وملء الفم وملء الضمير، اسمان أصبحا علماً على كل المعاني التي تقدّسها الرجولة الفاضلة وتمجدها الكرامة الإنسانية: الجهاد في سبيل الحرية، والموت في سبيل الله والوطن، والتضحية، والإيثار، والبطولة الصامته، والقيام بالواجب، كل الواجب، إلى آخر قطرة من الدم، وإلى آخر رمق من الحياة"⁽¹⁹⁾. "فإمّا حياة حرة شريفة، دون استعمار ولا تحكم أجنبي، وإما موت شريف، يحفظ الكرامة ويخلد المجد على صفحات التاريخ، ولا توسط بين الحالتين"⁽²⁰⁾. هكذا عبر المدني عن مشاعر شعبه وهو يخوض معركة من أشرس المعارك وإن لم يكن عدد من أوقدوا

نار الثورة يومئذ عظيما إذ "لم يتجاوز الألف رجل" ولم يكونوا مسلحين تسليحا جيدا، إلا أن ذلك كان إعلانا للأمة الجزائرية وللعالم بأن الشعب قرّر الثورة من أجل استرداد حريته المسلوبة وكرامته وحقه المغتصب، وبالفعل لما وزعت "لجنة الثورة للاتحاد والعمل C.R.U.A." منشيرا تعلم فيها بإعلان الثورة الكبرى، و"حين أذيعت على الناس الأتباء الأولى للثورة، وحين علموا أن الأمر جدّ، كان الناس يهنيء بعضهم بعضا، وكانوا يتبادلون القبل... كانوا يتساءلون في لهفة: أين نجد السلاح؟ من أين نأتي بالسلاح؟ أما النسوة - وقد قمت ببحث شخصي في الموضوع - فقد كن يعيرن القاعدين بالمجاهدين، وكن يتساءلن في لهفة عن الدور الذي يجب أن يقمن به في هذه الوثبة الوطنية النهائية"⁽²¹⁾.

وأمام الاندفاع الشعبيّ العظيم نحو الثورة، وأمام الرغبة الجماعية، التي ظهرت من كل طبقات الأمة في المشاركة الفعالة في المسؤوليات وفي إدارة العمليات وقع التخلي عن تسمية لجنة الثورة للاتحاد والعمل لتشكّل "جبهة التحرير الوطني" لتضمّ الجميع دون استثناء.

خاتمة:

إنّ التجربة الثورية الجزائرية وما أفرزته من خطط وتكتيكات عسكرية وحربية؛ أصبحت مرجعا ومثالا للعديد من الثورات في العالم وخصوصا منها حرب العصابات ومهاجمة الأهداف. وذلك عبر التخطيط المحكم الذي كان يتطور حسب مجريات الأحداث الميدانية ويظهر ذلك جليا من خلال "هذه هي الجزائر". فما بين غرة نوفمبر 1954م ويونيو 1956م تاريخ انتهاء أحمد توفيق المدني من وضع كتابه تكون الثورة قد قطعت شوطا مهما نحو إجبار الاستعمار على التراجع عن خطته وأهدافه بل إعادة حساباته من جديد. فالثورة قد شملت كل جهات القطر الجزائري وحاربت الاستعمار عسكريا واقتصاديا ونفسيا في كل مكان دون هوادة

ولا كلل رغم ما قدمته من شهداء بسبب اختلال موازين القوى العسكرية. فماذا كان يملك المجاهد لمقاومة الآلة العسكرية الفرنسية؟ كان الجزائري قويا وقوته تأتي من قوة روحه الجهادية وقوة عزيمته وقوة إيمانه وأهم أسلحته الحربية هي تلك التي افتكها من الجندي الفرنسي أثناء الكمائن التي نصبها له أو أثناء عمليات مداهمته في معقله بروح عالية وهمة لا تتكسر. فلا البطش والفضاعة والتتكيل أثروا في شعب قرر أخذ زمام مصيره بيده هذه المرة ودخل المعركة الفاصلة بثبات وتدبير محكم وتنظيم مدروس مستفيدا من كل المتغيرات على الأرض وكذلك المتغيرات الإقليمية والعالمية.

أما بخصوص الجانب التوثيقي والمنهجي للكتاب الذي أراده أحمد توفيق المدني كتاب تاريخ، فرغم الجانب الحماسي الذي صبغ النص بشحنة عاطفية كلما أراد المدني وصف الحالة النفسية للثوار فأن هذه التوصيفات كلها جاءت على لسان رجل مثقف وملاحظ يقظ وصحفي بارع ومناضل نشط الأمر الذي يعطيها أهمية إضافية كوثائق تاريخية تهتم بالبعد النفسي للثوار وهو المحرك الأساسي للفعل المقاوم. وبذلك يكون كتاب "هذه هي الجزائر" قد قدم إضافة نوعية في الحقل السنكروني لدراسة التاريخ من خلال الجزء الأخير منه والذي ركز فيه على أخرج فترة في حياة الثورة 1954م-1956م.

الهوامش:

- 1- أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، 1956م.
- 2- مارك بلوخ، "دفاعا عن التاريخ أو مهنة المؤرخ"، تقديم جبرار نواريل وباك لوجوف، ترجمة أ. الشيخ، المركز العربي الإسلامي للدراسات الغربية، 2012م، ص. 29-30 (النسخة الأصلية قبل الطبع النهائي والتي اطلعنا عليها بإذن من المترجم).
- 3- ج. لوغوف، تقديم كتاب "دفاعا عن التاريخ" لمارك بلوخ، ترجمة أحمد الشيخ، ص: 29-30.

- 4- مارك بلوخ، ترجمة أ. الشيخ، ص: 161-162.
- 5- جيرار نواريل، "قراءة في "دفاعا عن التاريخ"، ملحق أورده المترجم، ص: 203 - 204.
- 6- المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص: 94.
- 7- المدني، م.م. ص: 196.
- 8- المدني، م.م. ص: 06.
- 9- المدني، م.م. ص: 07.
- 10- أبناء فرنسا وأبناء العنصر اللاتيني.
- 11- المدني، م.م. ص: 36.
- 12- المدني، م.م. ص: 83.
- 13- المدني، م.م. ص: 83-87.
- 14- م.ن. ص: 87.
- 15- المدني، م.م. ص: 168-169.
- 16- م.ن. ص: 215.
- 17- المدني، م.م. ص: 216.
- 18- نفسه، ص: 150.
- 19- نفسه، ص: 6.
- 20- نفسه، ص: 192.
- 21- نفسه، ص: 197.